الدرس الثالث: الدلالة عند علماء العرب(2)

د ـ عند الفلاسفة:

أن بحث الدلالة عند فلاسفة العرب القدامى من أمثال الفارابي وابن سينا ارتبط بالدلالة اللفظية. وكانوا متأثرين بأرسطو في تحديد مفهومها؛ فهي عندهم الأثر النفسي للفظ.

لعل أول قضية دلالية استرعت اهتمام الفلاسفة العرب ـ على غرار غيرهم من الفلاسفة ـ هي نشأة اللغة وما يترتب عنها من حديث بين علاقة الدال بالمدلول. وأكثرهم على أن منشأها اصطلاحي، مصرحين بالعلاقة الوضعية ـ الاعتباطية في اصطلاح اللسانيات الحديثة ـ بينهما. وإن كان ذلك يفسر استمرارية اللغة لا نشأتها الأولى التي ثار جدل كبير حولها فمن قائل بالإلهام والتوقيف، ومن قائل بمحاكاة أصوات الطبيعة، ومن قائل بغريزة الكلام، ومن قائل بالتواضع والاصطلاح. جدل لم يوصل إلى نتائج يقينية حتى دعا فقهاء اللغة وعلماءها إلى تنحية مبحث نشأة اللغة من مباحث فقه اللغة.

ممن يؤكد على اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول **الفارابي** بقوله: «ثم كلما حدث في ضمير إنسان منهم احتاج أن يفهمه غيره ممن يجاوره اخترع تصويتا فدلّ صاحبه عليه.» فالدافع للتواضع والاصطلاح هو الحاجة للتعبير والتواصل مع الأخرين.

وهذا **ابن سينا** يؤكد العلاقة الاصطلاحية ـ التواضعية ـ بقوله: «فالدلالة بالألفاظ إنما يستمر بها التعارف بسبب تراض بين المخاطبين غير ضروري.». يعني بذلك الوضع الأول. موافقا بذلك ما ارتضاه عبد القاهر الجرجاني حين قال: لو أن واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد.

وقد سار ابن سينا على خطى أرسطو في تحديد أركان العلامة اللغوية إلى:

الخط ←الفظ ←المعنى ←المرجع

ولئن كان قد وافق أرسطو وسار على نهجه في التقسيم الرباعي لأركان العلامة اللغوية. وفي طبيعة العلاقة بينها ألا أن الخط عنده أقل شأنا من باقي الأركان.

ومما قام به فلاسفة العرب تقسيم الدلالة إلى طبيعية ووضعية، وعقلية؛ الأولى يحيل فيها الدال على المدلول بطريقة طبيعية ذاتية مثالها الأصوات المحاكية للطبيعة من خرير مياه، وطرق باب وغيره. والثانية ما يحيل فيها الدال على المدلول بالتواضع والاصطلاح. فلكي تنعقد الدلالة لابدّ من ثلاثة أمور كما يقول الأرموي: اللفظ؛ وهو نوع من الكيفيات المسموعة، والمعنى الذي جُعل اللفظ بإزائه، وإضافة عارضة بينهما وهي الوضع. والثالثة نتوصل إليها بواسطة

العقل. وهو ما يسميه الفلاسفة علاقة الاستلزام؛ كدلالة لفظ السقف على الأعمدة لأنه ـ عقلا ـ لا يقوم إلا بها.

إذن لفظ السقف يدل على معنى السقف بدلالة المطابقة؛ لأنه إنما وُضع للدلالة عليه. وعلى معنى الأعمدة بدلالة الاستلزام. مما ذكره الفلاسفة واقتبسه علماء الأصول كما ذكرنا سابقا زيادة عن دلالة التضمين؛ حيث يدل اللفظ على معناه بدلالة المطابقة، وعلى ما يتضمنه بدلالة التضمين. مثال ذلك: دلالة لفظ الزهرة على معنى الزهرة بدلالة المطابقة وعلى القرنفل، والأقحوان، والياسمين...وغيرها من الأزهار بدلالة التضمين.

ه ـ عند البلاغيين:

لم يكن علماء البلاغة أقل شأنا من غيرهم من حيث الاهتمام بقضايا الدلالة. ولعل المقولة البلاغية الشهيرة: لكل مقام مقال خير دليل على ذلك.

لقد كانت الدلالة حاضرة في كل مبحث من مباحث علم البلاغة؛ فقد كان الحديث في علم المعاني عن دلالات الأساليب المختلفة؛ خبرا وإنشاء، وعن دلالات أضرب الإنشاء المختلفة؛ طلبية، وغير طلبية. وكان الحديث أيضا عن دلالة التقديم والتأخير، والذكر والحذف وغيرها. أما في علم البيان فكان الحديث عن الدلالة الحقيقية والمجازية والأمر في ذلك منوط بالدلالة. وقد فصلوا الحديث عن أنواع المجاز وكيف تتحول الدلالة مما وضعت له أصلا إلى دلالة مغايرة لعلالقة من العلاقات المجازية المختلفة أما علم البديع فنجد تقاطعا واضحا بينه وبين علم الدلالة الحديث في دراسته الجناس التام؛ ذلك الذي يتم تناوله في علم الدلالة تحت اسم الاشتراك اللفظي؛ وهو دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى. وسيتم تناوله في مبحث مستقل من مفردات المادة إن شاء الله. كما نجد في علم البديع الطباق وهو المسمى في علم الدلالة التضاد الدلالي.

من علماء البلاغة نذكر عبد القاهر الجرجاني(471ه) الذي يتحدث عن الدلالة في ضوء نظرية النظم. ودلالة الألفاظ عنده مرتبطة بما تفيده من معنى عند التركيب (ينظر: أسرار البلاغة للجرجاني). يقول في (دلائل الإعجاز) في (الفرق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة): «ذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال: (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس.»

وهذا حازم القرطاجني (684ه) يقول في (منهاج البلغاء وسيراج الأدباء): إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن، وأنه إذا أُدرك حصلت له صورة في الذهن. وهو ما يعرف في علم الدلالة بالدال والمدلول.

مصادر البحث ومراجعه:

الحروف للفارابي

أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز للجرجاني.

منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني.

العبارة لابن سينا.

الشفاء لابن سينا.

علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي لمنقور عبد الجليل.